الإمام أبو حنيفة رائد مدرسة التجديد الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (80 ــ 150)

هو الإمام المقدم، وفقيه الإسلام، وعالم العراق، وأستاذ مدرسة الرأي، والعَلَمُ العلاَّمة، والبحر الفهامة أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الكوفي، ولم يكن أصلا من العرب، بل من أبناء الفرس، ومن موالي بني تيم الله بن ثعلبة.

الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ولد بالكوفة سنة80ه ثمانين من الهجرة ، وكان أبو حنيفة في أول أمره منصرفا إلى الاشتغال بالتجارة وحدها ، ثم اشتغل معها بالعلم فكان يتاجر في الخز وهو نوع من الثياب ، وكان تاجرا موسرا ، طلب أبو حنيفة العلم بالكوفة وهي حينئذ تشهد نشاطا علميا كبيرا ، ويروى أنه بدأ بتعلم النحو، والنحو في أصله قواعد مضبوطة وأقوال مسموعة ولا مجال فيها لتصرف العقل أو تعدد الرأي وكان أبو حنيفة يحب استخدام عقله ورأيه ، فأراد بمقتضى هذا أن يجمع كلمة ” كلب ” على ” كلوب ” كما تجمع كلمة ” قلب ” على ” قلوب” فقالوا له : لابد أن يكون جمع ” كلب ” هو ” كلاب”

فضاق ذرعا بهذا وترك النحو الذي لا قياس فيه إلى تعلم الفقه الذي يوجد فيه قياس يرضي عقله وذكائه، وكأن الذين رووا لنا هذه الحادثة أرادوا أن يشعرونا بميل أبي حنيفة إلى الأخذ بالرأي من أول الطريق

فقد أكثر أبو حنيفة من الرأي والقياس والسبب في هذا أنه أقل من غيره من الأئمة في رواية الحديث لتقدم **عهده على عهد بقية** الأئمة و**لتشدده في رواية الحديث بسبب** فشو الكذب في العراق وكثرة الفتن، ولعل شهرة أبي حنيفة بالقياس هي التي دفعت إلى الحوار بين أبي حنيفة والإمام محمد الباقر الذي قال: "**لموت عالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابداً" "المتكبر ينازع الله رداءه"** عندما ورد المدينة زائرا حيث قال له الباقر : أنت الذي حوّلت دين جدي وأحاديثه بالقياس ، فقال له أبو حنيفة معاذ الله ، فقال محمد بل حولته ، فقال أبو حنيفة اجلس مكانك كما يحق لك ، حتى أجلس كما يحق لي ، فإن لك عندي حرمة كحرمة جدّك في حياته على أصحابه ، فجلس ثم جثا أبو حنيفة بين يديه ، ثم قال : إني سائلك عن ثلاث كلمات فأجبني : الرجل أضعف أم المرأة ؟ فقال محمد: المرأة، فقال أبو حنيفة كم سهم للمرأة؟ فقال للرجل سهمان وللمرأة سهم فقال أبو حنيفة: هذا قول جدّك ولو حوّلت دين جدّك لكان ينبغي في القياس أن يكون للرجل سهم وللمرأة سهمان لأن المرأة أضعف من الرجل، ثم قال: الصلاة أفضل أم الصوم؟ فقال الصلاة أفضل قال هذا قول جدّك ولو حوّلت قول جدّك لكان القياس أن المرأة إذا طهرت من الحيض أمرتها أن تقضى الصلاة ولا تقضى الصوم، ثم قال البول أنجس أم النطفة؟ قال البول أنجس قال: فلو كنت حولت دين جدك بالقياس لكنت أمرت أن يُغسل من البول ويُتوضأ من النطفة ولكن معاذ الله أن أحول دين جدك بالقياس فقام محمد فعانقه وقبل وجهه وأكرمه، توفي رحمه الله

* مؤسس المذهب الحنفي أوّل المذاهب الفقهية الاجتهادية في الإسلام.. حيث من خلاله كان أول من دوّن عقيدة أهل السنة والجماعة، وذلك في كتابه (الفقه الأكبر كتاب في العقيدة ) وأثبت تلاميذه ــ وعلى رأسهم القاضي أبو يوسف ــ هذا المذهب في (الأصول) وذلك على شكل آلاف المسائل التي كانت تطرح للنقاش الشوري فيما بينهم مدة شهرٍ وأكثر، حتى يستقر أحد الأقوال فيها فيدوّن! واشتملت على كل شِعب الفقه والقانون، بما في ذلك القانون الدّوَلي الذي كان يعرف باسم(السَّير) ومعلوم أنّ الدولة العثمانية وكذا الباكستان اتخذتا المذهب الحنفي مذهباً تطبيقياً لهما في الحكم! وبذا يكون الإمام أبو حنيفة أول من قام بعمل تجديدي في تطوير العلوم الدينية والتقنين لها، واستنباط القوانين التي يحتكم إليها القضاة وتستند إليها الحكومات.. وشقّ بهذا العمل الطريق أمام الفقهاء وأهل القانون من المسلمين؛ ليعملوا على تدوين القانون الإسلامي ومتابعة العمل التجديدي خلال هذا المحور.
* ولد في حياة صغار الصحابة، ولكن لم يثبت له أيه رواية، ولو حرفًا واحدًا عن أحد منهم، طلب العلم صغيرًا، ولزم حلقة حماد بن أبي سليمان ثماني عشرة سنة، وقد آلى على نفسه ألا يفارق حمادًا حتى يموت، أو يستوفي منه كل علمه، ومع شدة ملازمته لحماد بن أبي سليمان، جلس لغيره من أئمة الزمان الأعلام: مثل عطاء بن أبي رباح عالم مكة وفقيهها، والشعبي عالم العراق، وعبد الرحمن بن هرمز عالم المدينة، ونافع مولى ابن عمر، وعلقمة والزهري محدث الزمان، ومحمد بن المنكدر، وهشام بن عروة، وغيرهم كثير، ولم يكن يأنف أن يروى، أو يطلب العلم من أحد، حتى ولو كان أصغر منه، حتى إنه قد روى عن شيبان النحوي وهو أصغر منه، وعن مالك بن أنس وهو كذلك أصغر منه، وهكذا شأن كل من طلب المعالي، وسلك سبيل الربانيين.
* ولما مات حماد بن أبي سليمان سنة 120هـ جلس أبو حنيفة مكانه في حلقة الدرس بجامع الكوفة، وكان وقتها في الأربعين من عمره، وقد بلغ حد الكمال العلمي والذهني، فتصدر وهو كهل، وكان تاجرًا يعمل في بيع الخز، فإذا قضى حاجته من التجارة جلس للعلم والتدريس والإفتاء، حتى فاق أهل زمانه جميعًا، وصار علمًا مقدمًا في الفقه وغيره، وقد أرسى دعائم مدرسته الرأي في الفقه الإسلامي، وصار أستاذ القياس الأول بلا منازع.

خصاله::

من أهم الصفات والشمائل التي يجب أن يتحلى بها العلماء الربانيون في هذه الأمة هي صفة الإخلاص في طلب العلم وتعليمه ونشره بين الناس، وهي الصفة التي تجعل العالم لا يطلب بعلمه شيئًا من أمور الدنيا، ويبتغي وجه الله عز وجل في كل كبيرة وصغيرة من علمه وأقواله، وبالمقابل فإن من أبرز صفات علماء السوء: طلبهم الدنيا بالدين، ففي ظل غياب الإخلاص عن قلب العالم نجد البعض - ممن ينتسب إلى العلم - منغمسًا في الدنيا وشهواتها وملذاتها، ونجده يسترزق بعلمه، ويطلب به المناصب والضياع والأموال، ويتحصل من الدنيا بعلمه على أكبر نصيب، بل هو لم يسلك طريق العلم أصلا إلا لينال به من متاع الدنيا، وهذا في شأنه قال خير البرية عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَي بِهِ وَجْهَ الله، لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليُصِيبَ بهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ)) [صحيح الجامع 6159] .

وصاحبنا الذي نتحدث عنه من الصنف الأول، من العلماء الربانيين الذي كانوا من أزهد الناس، وأتقاهم وأورعهم، من العلماء العاملين، الذين فروا من زخارف الدنيا، وفروا من المناصب، وكانت الدنيا تتزين لهم فيرفضوها، وتتعرض لهم فيطردوها، وتلاحقهم فيفروا منها كما يفر الواحد من الأسد، صاحبنا هذه المرة رفض الدنيا ومناصبها، وأبى أن يضع نفسه موضع الفتن والشبهات، وأبت عليه نفسه أن يكون مطية للسلاطين والحكام، وأصر على ذلك، حتى راح ضحية ثباته وإصراره على رفض المناصب والزخارف، فصار إمامًا من أعظم أئمة الإسلام.

لم يكن الإخلاص وحده، أو الإعراض عن الدنيا ومناصبها وزخارفها هو أهم ما يميز الإمام أبو حنيفة، بل كان من رجالات الكمال في العلم والعمل، موصوفًا بكل فضل؛ فلقد كان عالـمًا عاملا، جمع بين العلم والعبادة، فكان يصلي العشاء والصبح بوضوء واحد أغلب حياته، يطيل الصلاة جدًا مع الخشوع والسكينة، حتى لقب بالوتد لطول صلاته، وكان ممن قرأ القرآن كله في ركعة كما فعل ذلك من قبل ذو النورين عثمان رضي الله عنه، وكان يحيي ليله كله تضرعًا ودعاءً، وقد تواتر هذا الأمر عند أهل زمانه جميعًا، أما عن مجالسه فلقد كان حليمًا وقورًا، هيوبًا، لا يتكلم إلا جوابًا، ولا يخوض رحمه الله فيما لا يعنيه، كافًا لسانه عن النيل من خصومه الذين كانوا يطيلون الكلام فيه بسبب الرأي، معرضًا عن زلات الآخرين، لا يجاري أحدًا فيما لا ينفع ولا يغني، وقد جعل على نفسه إن حلف بالله صادقًا أن يتصدق بدينار، وكان إذا أنفق على عياله نفقة تصدق بمثلها، يكثر من الإنفاق على إخوانه وتلاميذه، بل وأهالي تلاميذه.

وكان أبو حنيفة ورعًا تقيًا، متحررا من مواطن الشبهة والمظنة، ولعل هذا الورع الذي أورثه محنته التي قضى فيها رحمه الله، ولقد قال له رجل يومًا: اتق الله، فانتفض واصفَّر وأطرق، وقال: جزاك الله خيرًا، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يقول لهم مثل هذا.

ثناء الناس عليه:

يعتبر أبو حنيفة الإمام الأول في ترتيب الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبوعة، والتي ظلت قائمة حتى وقتنا الحاضر، وإلى أن يشاء الله عز وجل؛ لذلك لقبوه بالإمام الأكبر والأعظم، ورغم وجود علماء فحول في زمانه وقبله، ربما يفوقونه علمًا ورواية إلا أنه قد استطاع أن يرسى دعائم مدرسة الرأي في الفقه الإسلامي، ويكون مذهبًا معروفًا، له أصول وضوابطه وأحكامه وتلاميذه، وإن كان الفضل في انتشار مذهبه يرجع إلى مجهودات تلميذه الأول القاضي أبي يوسف، أما عن ثناء الناس عليه فكثير، يخرج عن حد الحصر، وهذه طائفة من كلامهم:

• قال ابن المبارك: لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس، وما رأيت رجلا أوقر في مجلسه، ولا أحسن صمتًا وحلمًا من أبي حنيفة.

• قال الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

• قال الإمام مالك: رأيت رجلا - يعني أبا حنيفة - لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته.

• قيل للقاسم بن معن: ترضى أن تكون من غلمان أبي حنيفة؟ قال: ما جلس الناس إلى أحد أنفع من مجالسة أبي حنيفة.

• قال تلميذه أبو يوسف: كان أبو حنيفة ربعة، من أحسن الناس صورة، وأبلغهم نطقًا، وأعذبهم نغمة، وأبينهم عما في نفسه.

• قال شريك: كان أبو حنيفة طويل الصمت، كثير العقل.

• قال يزيد بن هارون: ما رأيت أحدًا أحلم من أبي حنيفة.

• قال أبو معاوية الضرير: حب أبي حنيفة من السنة.

• قال الذهبي: الإمامة في الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام (يعني أبا حنيفة).

• قال يحيى بن سعيد القطان: لا نكذب الله، ما سمعنا أحسن من رأى أبي حنيفة، وقد أخذنا أكثر أقواله.

• قال علي بن عاصم: لو وزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه لرجح عليهم.

• قال حفص بن غياث: كلام أبي حنيفة في الفقه أدق من الشعر، ولا يعيبه إلا جاهل.

• وسئل الأعمش عن مسألة فقال: إنما يحسن هذا النعمان بن ثابت الخزاز، وأظنه بورك له في علمه.

• والآثار الواردة في فضله ومكانته العلمية وثناء الناس عليه كثيرة جدًّا، لا يتسع المقام هنا لسردها، واكتفينا بما ذكرناه للتدليل على مكانة الإمام.

محنته:

• الإمام أبو حنيفة عاصر عهدين مختلفين ومتتابعين في حياة الأمة الإسلامية: العهد الأول عهد الدولة الأموية، وفيه وُلد الإمام، ونشأ وترعرع، وتعلم ودرس، وطاف البلاد، وجالس العلماء الكبار، وفيه أيضًا بلغ حد الإمامة والتصدر، وصار له تلاميذ وأتباع، وأصبح من جملة علماء الأمة الكبار والمعروفين، والذين يرجع إلى رأيهم، ويفزع إلى علمهم وقت النوازل والمحن.

أما العهد الثاني فهو عهد الدولة العباسية، التي شهدت الدولة العباسية في بداية عهدها العديد من الثورات الكبيرة ضدها من أولياء الدولة السابقة، أو من الناقمين على أسلوب وطريقة قيام وحكم الدولة الجديدة.

• وفي هذا الجو المتوتر، والمليء بالفتن والاضطرابات تجد الشائعات البيئة الخصبة للرواج والانتشار، ويجد الوشاة والحاقدون والحاسدون الآذان المصغية لأكاذيبهم وافتراءاتهم، ومن هنا كانت محنة الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

• فعندما اندلعت ثورة النفس الزكية هو محمد **بن عبد الله (الملقب بالنفس الزكية ) وندد بسياسة العباسيين الذين اغتصبوا السلطة، وغدروا بأصدقائهم، وتجاوزوا كل وعودهم، فاكتسب بذلك تأييدًا شعبيًا كبيرًا، وقد ساعده في هذا مكانته التي كانت تستقطب الاحترام والثقة، وخاف أبو جعفر المنصور من تفاقم ثورته، فاستنفر كل أجهزته للقبض عليه، فلم يصل إلى نتيجة، لأن محمدًا توارى عن الأنظار خوفاً من أن تُجهض حركته في مهدها.** سنة 145هـ بقيادة أخوين من آل البيت: هما محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن حسن، استطاعت هذه الحركة أن تسيطر على المدينة والبصرة والكوفة، وأجزاء من الدولة العباسية، وكانت هذه الثورة من أشد و أقوى الثورات التي قامت على الدولة العباسية أيام الخليفة أبي جعفر المنصور، والذي بذل مجهودات ضخمة من أجل القضاء عليها، وخلال هذه الثورة راج بين الناس أن الإمام أبا حنيفة بالعراق والإمام مالك بالمدينة يؤيدان هذه الثورة، وكان الإمامان من أكبر علماء العصر وقتها، فلما انتهت الثورة انتهز الوشاة والحاقدون الأمر، وأخذوا في تأليب الخليفة المنصور على العالمين الجليلين، أما ما جرى مع الإمام أبي حنيفة أشد وأقسى جرمًا.

• فلقد كان الإمام أبو حنيفة - كما ذكرنا من قبل- عازفًا عن المناصب الدنيوية، وخاصة المناصب التي يكون صاحبها قريبًا من السلطة الحاكمة، وخاضعًا لتأثيراتها وضغوطها، لما يعلمه من حجم المخالفات التي سيقع فيها صاحب المنصب من أجل إرضاء السلطة الحاكمة: إما رهبة، وإما رغبة، لذلك لما عرض ابن هبيرة والي العراق في أيام الخليفة الأموي يزيد بن الوليد - الملقب بالناقص على الإمام أبي حنيفة منصب القضاء بالكوفة رفض أبو حنيفة بشدة؛ فهدده ابن هبيرة بالضرب والحبس، ومع ذلك أصر أبو حنيفة على الرفض، فما كان من ابن هبيرة إلا أن ضربه وجلده؛ فلم يُزِدْ ذلك الضرب أبا حنيفة إلا إصرارًا على الرفض، وعندما تركه ابن هبيرة، وعين آخر مكانه أدت هذه الحادثة لارتفاع مكانة أبي حنيفة بين الناس، وعلا شأنه بين علماء الزمان.

• ولما انتهى الخليفة أبو جعفر المنصور من ثورة النفس الزكية، التفت لمن حامت عليهم الشائعات، ودارت حولهم الأقاويل في اشتراكهم في ثورة النفس الزكية، أو حتى في تأييدهم لها، وعلى رأس هؤلاء الإمام أبو حنيفة، فطلبه إلى بغداد، فحُمِلَ الإمام إلى هناك، وفي مجلس الخليفة المنصور، دعا المنصور أبا حنيفة إلى منصب القضاء - وهو يعلم علم اليقين أن الإمام سيرفض تمامًا - كما فعل من قبل مع الأمويين وواليهم ابن هبيرة، وإنما أراد المنصور بهذا العرض أن يختبر مدى طاعة وولاء أبي حنيفة للدولة العباسية، وفي مجلس المنصور دار الحوار الفريد بين الخليفة والإمام الكبير:

فعن مغيث بن بديل قال: دعا المنصور أبا حنيفة إلى القضاء فامتنع، فقال المنصور: أترغب عما نحن فيه؟ [أي يشكك في طاعة الإمام للدولة].

فقال أبو حنيفة: لا أصلح.

فقال المنصور وقد احتد: كذبت.

فقال أبو حنيفة: فقد حكم أمير المؤمنين على أني لا أصلح!!

ثم استخدم أبو حنيفة مهارته الفائقة في الإقناع والقياس فقال: فإن كنت كاذبًا فلا أصلح [يعني لكذبه]، وإن كنت صادقًا، فقد أخبرتكم أني لا أصلح.

وعندها غضب أبو جعفر المنصور بشدة، وأقسم بأغلظ الأيمان ليلينَّ الإمام منصب القضاء، وكان من الطبيعي أمام هذا الغضب، وهذه الأيمان المغلظة، وسطوة الخلافة أن يرضخ أبو حنيفة لكل هذه الضغوط ويوافق، ولكن أبا حنيفة العالم الرباني، الذي لا يبالي إلا بسخط الله عز وجل وحده وغضبه، والذي يعلم عواقب أمثال هذه المناصب المشروطة يرد على الخليفة المنصور قسمه بقسم أغلظ، ويمين أوكد، ويقسم أبو حنيفة ألا يلي هذا المنصب الخطير، ومع قوة رد الإمام لم يستطع الخليفة المنصور أن يرد، وعندها يتدخل الربيع حاجب الخليفة المنصور في الحوار لعله يستطيع إثناء أبي حنيفة عن رأيه، ويقول للإمام أبي حنيفة مهددًا: ترى أمير المؤمنين يحلف وأنت تحلف؟ فرد أبو حنيفة بهدوئه ووقاره وفطنته المعهودة: أمير المؤمنين على كفارة يمينه أقدر مني، وهو بذلك يؤكد على إصراره، ورفضه لمنصب القضاء، وأنه مهما كانت الضغوط، ومهما كانت شخصية صاحب هذه الضغوط وسطوته فلن يرضخ الإمام

• عندها قرر الخليفة المنصور أن يُصعد ضغوطه على الإمام؛ فخيره بين قبول القضاء أو السجن، وكأنا بالخليفة المنصور قد تأكدت عنده الشائعات التي راجت حول دعم أبي حنيفة لثورة النفس الزكية، وأراد أن ينكل بالإمام ويؤدبه بشدة كما ؛ فأصر أبو حنيفة على الرفض، ولسان حاله يقول: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: 33]، فأمر المنصور بضربه أولا، ثم حملوه في القيود إلى سجن بغداد.

• وفي السجن المظلم عانى الإمام أبو حنيفة من التضييق والتشديد، وأيضًا من التهديد بالقتل يومًا بعد يوم، وقد أمر الخليفة المنصور بالتشديد على الإمام، وكان وقتها على مشارف السبعين، وقد وهن جسده، وحطمته دروس العلم، ومساءلات الناس، ومع ذلك لم يتراجع أبو حنيفة عن قراره، ولم تلن عزيمته قيد أنملة، ولكن إن صمد قلبه وروحه وعزيمته وإيمانه أمام كل هذه الضغوط فإن الجسد الواهن لم يصمد كثيرًا؛ فتوفي الإمام أبو حنيفة في سجنه في رجب سنة 150هـ، وصعدت روحه إلى بارئها وهي في قيود السلطان لتخاصمه يوم القيامة أمام المحكمة الإلهية يوم لا ينفع مال ولا بنون، وقد قيل: إن المنصور قد دس على الإمام أبي حنيفة من وضع له السم في السجن، وإن صح الكلام فقد توفى الرجل شهيدًا تقيًا، صابرًا محتسبًا، والله أعلم بما كان، وما سيكون.

• العجيب في هذه المحنة التي تعرض لها الإمام أنها كانت بسبب فرار الإمام من الدنيا ومن المناصب، وإننا لنعجب من حال هذا الإمام الرباني، الذي أقبلت عليه الدنيا بزخارفها، والمناصب تعرض عليه، ويهدد بكل وسيلة من أجل أن يكون من أصحاب المناصب العليا، ولكنه يرفض، ويؤثر الضرب والسجن، ثم الموت على أن يكون من الدنيا وأهلها، ونحن الآن نرى من ينتسب للعلم يتهافت على الدنيا والمناصب، ويلهث وراء الدنيا، ولا يبالي بأي شيء من أجلها، وهؤلاء عادة ما يكونون مطية للسلاطين والحكام، وهم بذلك أسوأ مثال للعلم والعلماء، وهذا هو الفرق بين العلماء الربانيين، والعلماء الدنيويين.

المصادر والمراجع

• سير أعلام النبلاء: (6/ 390).

• تاريخ بغداد: (13/ 323).

• البداية والنهاية: (9/ 115).

• الكامل في التاريخ: (5/ 192).

• وفيات الأعيان: (5/ 415).

• تذكرة الحفاظ: (1/ 227).

• النجوم الزاهرة: (2/ 12).

• تراجم أعلام السلف: (147).